موقف الإسلام من العولمة في المجال الثقافي والسياسي

الشيخ محمد مهدي شمس الدين

مقدمة

أ –العولمة اصطلاحاً ومفهوماً

يعبر مصطلح العولمة الذي تداول المفكرون والباحثون استخدامه منذ عقد من السنين (منذ نهاية الثمانينات) عن تحول عالمي في رؤية كثير من المرتكزات في مجال القيم الأخلاقية والاقتصاد والسياسة، التي كانت سائدة على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية بين البشر. كما ويستبطن هذا المفهوم رؤية جديدة حول الهوية، هوية المجموعة وهوية الجماعة وهوية القوم. وحول شخصية المجتمع وشخصية الدولة على المستويات الوطنية والقومية بالنسبة إلى المجتمعات التي تعاني من ضعف في سيادتها أو في اقتصادها أو في قوتها، أي لتلك المجتمعات التي تعتبر مغلوبة على أمرها في مجال المنافسة على المستويات الاقتصادية والسياسية والأمنية والعلمية والثقافية وما عدى ذلك .

هذه الظاهرة (العولمة) تبدو للناظر وكأنها كائن خارق الإمكانات، خارق القوى، يتهيأ لافتراس كل ما يقع بين يديه على المستوى العالمي من جماعات ودول وشعوب. وتأتي في مقدمة الفرائس التي تستشعر الخطر أو التي ينبغي أن تستشعر الخطر الأمة العربية والأمة الإسلامية، لأن في تقديرنا أنه كلما كان مجتمع ما أو أمة ما تتمتع بمضمون ثقافي يمكن تطويره وتثويره ليعيد صياغة هذا المجتمع وهذه الأمة، وليكون له دور فعال وأصيل على المستوى العالمي، ولا يكون مجرد تابع — كلما كان المجتمع ما وأمة ما من هذا القبيل — فإنه يكون فريسة نموذجية لهذا الكائن (العولمة) الذي يهدف إلى أن يلغي كل الأغيار، ويدمج كل التنوعات في صيغته الخاصة، وهو ما يمكنه من أن يمتص ويستحوذ على كل القدرات في الطبيعة وفي الإنسان لمصلحته الخاصة، لمصلحة قوته ومتعته واستهلاكه، بل على جميع المستويات المعنوية والمادية .

هل يعبر هذا الفهم عن حقيقة موضوعية؟هل غدت العولمة في السنوات العشر الماضية حقيقة حاسمة في الاجتماع البشري، أو أنها لا تزال افتراضاً يمكن أن يتحقق ويمكن أن لا يتحقق؟ نحن لا نرى أنها مجرد وهم كما لا نرى أنها حقيقة غالبة وراهنة، هي شيء في دور التكوين قطع شوطاً يعتد به حتى الآن في إبراز معالم ذاته. نرى ذلك في السياسات الاقتصادية، ونرى ذلك في السياسات الأمنية

ونرى ذلك في الظاهرة الثقافية (في المجال الثقافي). إذن العولمة هي شيء غير مكتمل الآن ولكنه ليس ساكناً، بل ينمو .

نحن في مواجهة مشروع استحواذ جديد يتكون، وقد مر في مراحل متنوعة منذ القدم، ولكنه يتمتع الآن بأقصى قدراته، وذلك لما أتاحه العلم الحديث في جميع حقوله من قدرات خارقة لمن يمتلك ناصية القوة والنفوذ. ومن هنا فإن الحديث عن هذا المشروع والتهيؤ له من قبلنا عرباً ومسلمين يعتبر من حسن الفطن، لأن استباق الأخطار أفضل من مواجهتها بعد أن تقع، استباق الخطر بالتهيؤ له، والتحكم ضده، وتهيئة الوسائل المناسبة لمواجهته ومكافحته، هي خير من عدم المبالاة .

ب –العالمية والنظام العالمي

وقبل الدخول في بحث مضمون العولمة وتحديد الموقف منه، نرى من المناسب التمييز بينه وبين مصطلحين آخرين:أحدهما مصطلح النظام العالمي، والثاني مصطلح العالمية .

أما مصطلح النظام العالمي فيبدو أنه لغة للتعبير عن طموح نحو إيجاد نظام سياسي عالمي تهيمن فيه أو تفرض فيه قوة وحيدة أو تحالف قوى، هيمنة سياسية انطلاقا من مصالحها المادية ونظرتها الفلسفية (أساساً من حيث مصالحها المادية) على أكبر قدر ممكن من دول وشعوب العالم .

لقد شهد العالم عدة أنظمة عالمية شمولية منذ العهد الروماني تمثل فيما سمي)العالم الروماني، والسلام الروماني) وتمظهر بعد ذلك في عدة صيغ إلى أن ظهر الإسلام وتكونت الدولة الإسلامية التي تطورت إلى نظام عالمي كان جديداً في حينه، وبعد ذلك جاءت أنظمة عالمية أخرى تتابعت إلى العصر الحديث حيث شهد هذا العصر عدة تجارب كان آخرها ما سمي النظام العالمي الجديد الذي برز بوضوح بعد انهيار الإتحاد الإسلامي السوفييتي .

هذا النظام العالمي هو آلية لممارسة سياسة للتأثير، تنطلق وترتكز على المصالح التي تسعى إليها أو تدافع عنها مجموعة القوى العظمى. في مرحلتنا الراهنة تمحورت هذه القوى العظمى في الولايات المتحدة الأمريكية وليس ثمة ضرورة تدعو إلى أن يكون لهذا النظام علاقة بالثقافة والحضارة. هو يمكن أن يتعايش ويتفاعل مع ثقافات متنوعة ومختلفة ومع أنماط حضارية مختلفة. إن جوهره هو ممارسة السلطة لمصلحة نظام المصالح الغالب .

أما العالمية، فهي تعبير عن مجال قد يكون بعيداً عن السياسة والاقتصاد، بل هي تعبير عن النوع الثقافي. فالعالمية تعني الاعتراف بالأدوار، بحيث يكون العالم منفتحاً على بعضه مع الاحتفاظ بتنوعاته، ولقد كانت هذه هي السمة البارزة في الحضارة والثقافة والإيمان الإسلامي بشكل خاص:الاعتراف بالآخرين، احترام خصوصيات الآخرين. وهو الأمر الذي أنتج حالة الحوار بين الثقافات والحضارات والدول والشعوب والمصالح والأديان وما إلى ذلك .

إذن العالمية لا تعني الهيمنة الاقتصادية كما لا تعني في الوقت نفسه أيضاً الهيمنة الثقافية، وإنما تعني التنوع وانفتاح الثقافة الخاصة على الثقافات الأخرى، تعني التعارف وفقاً للمبدأ القرآني:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ." . .

ج –مضمون العولمة

أما العولمة، كما عرفت وكما يبدو من تطبيقاتها، فهي تقوم على اجتياح للثقافات الأخرى ومحوها محواً كاملاً، وإذا كان لهذه الثقافات من بقاء فسيكون بقاء فلكلورياً لمجرد الاستمتاع وليس لتنمية وإخصاب الذات الإنسانية، إنها سيطرة القوى الكبرى والغالبة، وهي إلى جانب السيطرة الاقتصادية والسياسية تمارس السيطرة الثقافية وتستخدم كل تنوع ثقافي في سبيل التنكيل بالآخرين وإرهاب الآخرين لأجل استتباعهم ثقافياً .

إن العولمة بالصيغة الأمريكية التي يحاولون فرضها على العالم لا تمثل تحدياً بقدر ما تمثل غزواً، فهي مشروع يتسلم واقع الهيمنة على السياسة والاقتصاد من جهة، وبالقدرة غير المسبوقة في توجيه الإعلام من جهة أخرى، كما أنها تتسلح أيضاً بالقدرة على التشريع على المستوى الدولي .

ولذا فإن العولمة لا تمثل في نظرنا تحدياً، بل تمثل غزواً وهذا الغزو لابد من مقاومته .

إننا نعتقد أن دعاة العولمة يهدفون إلى السيطرة الاقتصادية تحت شعار دعوى أنها تؤدي إلى ارتفاع مستوى الحياة للدول. وإلى إتاحة توزيع أفضل للاقتصاد .كما يهدفون إلى السيطرة الثقافية التي تؤدي إلى تشويه أو تذويب الشخصية الخاصة .

ومن جهة أخرى فإن العولمة تؤدي إلى تشجيع عوامل التفتت والانقسام داخل المجتمعات الأخرى، والى إثارة التناقضات العرقية والدينية والمذهبية بين الأقوام داخل المجتمعات، وتؤدي بهذه المجتمعات إلى حروب وتوترات داخلية تتيح الاستيلاء عليها، والهيمنة عليها وعلى اقتصادها، أنها تتيح تفتيت البنى الثقافية

والأخلاقية و أنظمة القيم داخل مجتمع وداخل كل حضارة لمصلحة تيار الحداثة، كما يتجاوز فيما يسمى الحضارة الأمريكية والثقافة الأمريكية ونمط الحياة والعيش الأمريكي.

هذا يفرض علينا، يفرض على كل شعب، كل حضارة، كل ثقافة، مسؤوليات تحصين الذات من جهة والانفتاح من جهة أخرى تحصين الذات بما لا يعني الانغلاق، والانفتاح بما لا يعني الذوبان .

بالنسبة لنا في العالم العربي والإسلامي فإن هذا يفرض مسؤوليات تربوية في الأسرة وفي المدرسة وفي الجامعة وفي الحياة العامة. وهي مسؤوليات أكبر وأثقل ضرورة وإلحاحاً مما كانت عليه الحال قبل نشوء الموجة الثقافية والتيار الثقافي الماحق والساحق الذي يتدفق بواسطة الإنترنت والتلفزيون والسينما والصحافة وما إلى ذلك تحت عنوان الحداثة .

د –الحداثة والعولمة

إن العناصر الفكرية الفلسفية المكونة للحداثة ثلاثة :

العنصر الأول– الحداثة تقوم على الرؤية الدنيوية المرتكزة على أن العالم الموضوعي الخارجي هو الحقيقة، وهذه الرؤية تنفي أي تدخلات غيبية ما ورائية في وجود العالم أو في صيرورة العالم (العلمانية الكاملة).

وفي هذه الحالة فإن عمل الإنسان في المجتمع والطبيعة، وعمل المجتمع في نفسه يهدف إلى تحقيق غايات ومقاصد من سنخ الموضوع الذي تحيا فيه، أي أنه يهدف إلى تحقيق أهداف ومقاصد مادية .

تتعلق بالسيطرة على الطبيعة وبتحسين حالة العيش، في مقابل النظرة الإسلامية أو النظرة الدينية عموماً التي ترتكز على أن هدف الحياة والخلق، هدف الوجود يتجاوز العالم المادي إلى تحقيق غايات ومقاصد روحية في كينونة الإنسان وفي شخصية الإنسان وفي مصيره الأخروي .

العنصر الثاني – الذي ترتكز عليه الحداثة هو أنها تقوم على الفرد، تقوم على أن محور الوجود، محور العمل، محور النشاطات هو الفرد. التأكيد على فردية الإنسان. وعلى هذا الأساس فهي تدعو إلى إعطاء كل الفرص لنمو الفرد وازدهار الفرد وسعادة الفرد. وهذا يبرز مقصداً أساسياً وهو إعطاء أوسع الحريات للفرد في مقابل الواجب .

يسيطر حينئذ مبدأ الحرية مقابل مبدأ الواجب. وفي هذه الحالة يكون النظام الأمثل هو الذي يعطي اكبر قدر من الحرية للفرد على نفسه وعلى الطبيعة وعلى تصرفاته، في مقابل أقل قدر من الالتزامات والواجبات تجاه الغير .

العنصر الثالث – تقوم الحداثة على أن المرجعية في فهم الأشياء وفي الحكم على الأشياء، في فهم التصرفات وفي الحكم على التصرفات، على صحتها وخطئها هو العقل الوضعي، العقل الذي يرتكز البراغماتية (النظرة النفعية) المحضة وعلى المادية المحضة، وهو ليس العقل الذي يدرك به الخير والشر والذي يقوم على مبدأ أخلاقي (العقل العملي بالاصطلاح الفلسفي).

إذن المرجعية هي للعقل الوضعي المادي النفعي، في مقابل مرجعية أخرى أي مرجعية العقل بالمعنى الذي يدرك الخير والشر ويدرك الحسن والقبح، والى جانب مرجعية الوحي .

هذه العناصر الثلاثة هي التي تقوم عليها فكرة الحداثة أو فكرة العلمانية المطلقة .

وهذه العناصر الثلاثة حين تشكل أساساً لثقافة الفرد، فإنها تنتج هذا الفرد الذي نرى نماذجه في الحياة الغربية المعاصرة، كما نلاحظ حينما يطبق على الدولة، تلك الدولة التي تحاول أن تتخلص من كل التزام ديني، وكل التزام اجتماعي وأخلاقي، وكل التزام يقوم على الأخلاق وعلى الغيب وعلى مرجعية الدين. بحيث تكون الدولة مادية .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن سلطة الدولة تتقلص وتكون سلطة هشة، باعتبار أن الاتجاه الفردي هو الذي يحكمها، وأن مبدأ الحرية بالتالي هو الذي يحكمها، ويأخذ الأفراد منها أكبر مساحة من الاستقلالية، وتكون الدولة مجرد منسق ومديراً للأنشطة ولا تشكل أية قيادة على الإطلاق .

فالدولة العصرية – دولة الحداثة – تختلف عن الدولة التقليدية، تصبح دولة غير دينية، ربما لا تعادي الدين سياسياً وسلطوياً ولكنها بالتأكيد تعاديه عملياً وتطبيقياً، وتكون دولة مادية ودورها يتركز على توفير فرص التعامل بين الأفراد .

العولمة في التطبيق الملموس

تؤدي العولمة إلى هشاشة الدولة تجاه الخارج فلا تعود متماسكة أمام القوى العظمى التي تسيطر على تيارات العولمة في الاقتصاد وفي الثقافة وفي السياسة وفي الإعلام .

وحينما تكون الدولة مؤلفة من فئات مذهبية أو عرقية أو اجتماعية أو دينية أو من ذلك كله، فإنها تكون أيضاً هشة في الداخل أمام عوامل الانقسام وتكون هشة في الخارج أمام عوامل الاستتباع. ونعتقد أن هذا أحد مقاصد الدول العظمى .

وأما إذا كانت الدولة متجانسة في شعبها فإن هشاشتها اتجاه الخارج تؤدي إلى استقوائها على شعبها في الداخل، وترتفع مستويات القمع ومصادرة الحريات وفرض السياسات على المجتمع .

إن فسح المجال للعولمة في مجال الاقتصاد يؤدي إلى إفساح المجال لسيطرة الشركات العملاقة متعددة الجنسيات والتي لا تعترف بالدول ولا بالحدود ولا بالشعوب ولا بالأخلاق، بل تؤدي إلى تدمير القيم الأخلاقية التي يجب أن تحكم الاقتصاد والتنمية والعلم، وقد تسخر كل ذلك لزيادة الأرباح، ولقمع كل تطلع ويؤنسن التنمية ويؤنسن العلم .

وحينما نبحث عن القوى المؤثرة والتي تدير عملية العولمة لمصلحة القوة العظمى الأخرى نجد أنها الدول الثماني الصناعية الكبرى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، والمؤسسات النقدية العالمية الخاصة مثل البنوك الكبرى في العالم، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، ومنظمة التجارة العالمية، والشركات المتعددة الجنسيات .

ونلاحظ نحن المسلمين أن جميع هذه القوى المحركة للعولمة والتي تديرها، تتخذ موقفاً سلبياً من الإسلام والعرب في الصراع مع الصهيونية، وفي قضايا الثقافة، مثلاً حيث نلاحظ الموقف الذي اتخذ بشأن سلمان رشدي أو تسليمة نسرين أو غيرهما، وبينما نجد أنها تقف موقفاً محابياً للصهيونية ولمؤسساتها إسرائيل . إن هذا الموقف المتحكم وغير المحايد، والعدواني في كثير من الحالات، يظهر في كثير من المواقف والسياسات في جميع المجالات وعلى جميع المستويات .

إن وقوف العرب والمسلمين ضد العولمة، أو اتخاذ موقف الحذر ناشىء من التجربة العملية، وليس مجرد موقف انفعالي .

وليس العرب وحدهم ضد العولمة، وليس المسلمون وحدهم ضد العولمة، فنحن نلاحظ كيف أن الأوروبيين وخصوصاً الفرنسيين ينعتون العولمة بأنها (أمركة العالم) وهي في الحقيقة أمركة العالم. والأمريكيون يقولون إنها النظام العالمي. يريدون أن يعطوها اسما غير أمريكي ولكنهم يسيطرون عليه .

أوروبا تصرخ وتقول (أوقفوا الأمركة) لأن هذا النظام المسمي النظام العالمي يهدف إلى فرض الثقافة الأمريكية ونمط الحياة الأمريكي، والاستيلاء على مقدرات الاقتصاد العالمي، وتحطيم الإقتصادات الأخرى، حينما تعجز أمريكا عن استتباعها، ونتذكر صرخة وزير الثقافة الفرنسي (جاك لانغ) في المكسيك في المؤتمر العالمي للأونيسكو حينما قال: (اتحدوا بثقافات الدنيا ضد الغزو الأمريكي الثقافي) العولمة تتجلى بهذا النحو من الاستتباع .

إشكال مواجهة العولمة

إن المهم عند المسلم ومن وجهة النظر الإسلامية فيما يتعلق بالعولمة هو تحصين الذات من التشويه والذوبان، تحصين الذات الحضارية والثقافية والاعتقادية والتشريعية من التشويه والذوبان في الآخر، من دون قطيعة مع الأخر، بل مع الاستجابة لجميع دواعي الاتصال.

ومن جهة أخرى تحصين المصالح من الانتهاك، المصالح الاقتصادية وقضايا السيادة والاستقلال. ومع ضمان هذين الأمرين فإن الإسلام يحض على التواصل الحي الفعال مع العالم .

ولكن الحركات والدول الإسلامية (وهو الموقف السائد في العالم الثالث عموماً) اتخذت في مواجهة العولمة أحد ثلاثة مواقف:

هناك من يدعو بحماس إلى الاندماج المطلق والاستجابة لكل مقتضيات العولمة، والتخلي عن كل الخصوصيات التي تميز الشخصية وتميز الدور، والتي تؤهل للدور المتميز .

وهناك فريق يعمل على الانسحاب والانزواء والرفض، ويتشبث بالهوية الوطنية والثقافة الوطنية، ويتهم كل تجليات العولمة .

وهذا الانكماش والانطواء على الذات والانقطاع عن متغيرات العالم ليس حلاً للمشكلة، لأنه لا يجوز أن نختنق داخل أسوارنا، بل لم تعد لنا أسوار لأن وسائل الاتصال المتطورة، وإرادة الغزو والاستحواذ، لم تبق أسواراً لأية حضارة ولأي شعب ولأية ثقافة، فمآل حالة الانزواء والانطواء إلى الانتحار الذاتي، إلى خنق الذات والى محق الذات .

هناك تيار ثالث توفيقي يحمل نفس السمات التي ظهرت في التيار التوفيقي بين الإسلام والغرب في بدايات التواصل والاحتكاك بين العالم الإسلامي وأوروبا الغربية وحضارتها، هذا التيار يحاول أن يؤلف بين

التيارين السابقين، يأخذ من العولمة ما يرى بأنه لا يتنافى مع الهوية والشخصية، ويرفض من العولمة ما يرى انه يتنافى .

هذا التيار التوفيقي في الحقيقة تيار فاشل، ونعتبر أن التوفيقي بهذا المعنى، بأخذ صيغ ومؤسسات جاهزة ونبذ مؤسسات وصيغ جاهزة يشبه تأثيث منزل بموديلات متعددة ومن عصور مختلفة. إن مقولة (إننا نأخذ ما يناسب العلم ونحتفظ بقيمنا) مقولة غير واقعية لأن السؤال هو: هل يتمتع نظام القيم عندنا بالقدرة على مقاومة غزو تيار العولمة؟هل هو قادر على أن يقاوم الثقافة الحسية البصرية المادية الشهوانية وبكل العناصر التي يشتمل عليها تيار الحداثة كما بيناه؟

الجواب

إنه غير قادر. إننا في هذه الحالة نتخذ موقفاً لفظياً وشكلياً بينما يؤول بنا الأمر إلى الذوبان الكامل . لابد من اعتماد مبدأ المقاومة ومبدأ تطوير الذات وليس المحافظة على ما نعتبره من الثوابت .

المطلوب هو تعميق وتفعيل حركة الاجتهاد، وتطوير كل مؤسسات الأمة في أنظمتها السياسية، وفي توجهاتها العلمية والثقافية، وفي توجهاتها الاقتصادية في مجالات الصناعة وفي مجالات الزراعة وفي مجالات المال .

لابد أن نتحرك في انتفاضة شاملة تعيد بناء الأمة وفقاً لنظرة جديدة تحيي أصالتها وحركتها وفاعليتها في مواجهة الأغيار، ومن دون هذا نحن لا نرى أن هناك أفقا يسمح بمقاومة التيار الوافد .

إن الموقف الصحيح الذي نراه ليس اخذ صيغ من العولمة، بل إدارة العملية الثقافية الاقتصادية الإعلامية وبالتواصل مع العالم الآخر، بنحو أننا نحن المسلمين والعرب نولد عولمتنا الخاصة، أو – بعبارة أخرى– نولد صيغتنا الخاصة من العولمة على قاعدة الثوابت الإسلامية التي تسم الأمة الإسلامية والأمة العربية .

في هذه الحالة حينما نأخذ من العولمة السائدة شيئاً لا يبقى بوجه من الوجوه محتفظاً بهويته الأمريكية أو الغربية على وجه العموم. بل يعاد تكوينه من داخله ومن مضمونه ليكتسب الهوية والصيغة التي تناسبنا وتتبع من ذاتيتنا الخاصة.

وفي المجال التوفيقي نلاحظ أنه يؤخذ من العولمة كل المواد الاستهلاكية في الأفكار والمواد المادية، يقال أننا نحتفظ بشخصيتنا الفكرية وصيغنا الوطنية في تركيبنا السياسي وفي بناء الدولة عندنا، وهذا وهم، لأن قوة الأشياء تؤثر على الأفكار والقيم .

إن العولمة بالنسبة إلى العالم الثالث أو معظم العالم تعني التلقي والاستتباع، تعني أن يكون دور الآخرين هو الخضوع، وأن موقعهم موقع تلقي التعليمات وتلقي صيغ الحياة والعيش، والاستتباع في المجال الاقتصادي والسياسي، بدل الحوار وبدل الاشتراك في صناعة صيغ الحياة وصيغ المجتمع .

إن (التعارف) الذي هو هدف (التنوع) بحسب المفهوم القرآني يعني تبادل الآراء وتبادل الخبرات والإنتاج المشترك لصيغ تولد من خلال الحوار والاتصال. ولكن مع سيطرة الإعلان والإعلام الإعلاني تحول الأمر إلى أن الإعلام لم يعد حواراً، لقد تحول إلى إعلان لا يدعو إلى الحوار، بل يدعو إلى الإصغاء، الإعلام والتعارف تعبيران عن ثقافتين مختلفتين .

التعارف يخلق أجواء الحوار والتواصل البشري الإنساني والتعاون وتحقيق مكاسب مشتركة، بينما الإعلام الإعلاني والإعلان الإعلامي يجمع كل المواد الإعلامية الملائمة لوجهة نظر سياسية أو اقتصادية أو فلسفية معينة، ويبثها على أنها حقائق وأفكار أساسية، ويطلب من الآخرين أن يقبلوها .

في ظل هذه الحالة يعيش العالم اليوم المرحلة التي يبدو فيها الصراع محسوماً لصالح الإعلان في صراعه مع الإعلام الصحيح بمعنى التعارف، ويبدو الإعلام أو الإنباء هو الوظيفة الاتصالية الكبرى التي يسخرها الإعلان بشكل كامل لغاياته وأهدافه السريعة التي تقوم على جني الأرباح .

ما هو هدف العولمة ؟

يقال إن هدف العولمة هو تكوين الإنسان الجديد!

من هو هذا الإنسان الجديد؟

هذا الإنسان الجديد كما نراه ونفهمه هو الإنسان المملوك والمصادر إعلامياً، الغارق في الشكلية، الخالي من أي مضمون خاص، بل إن الشكل أصبح هو المضمون .أنه الإنسان الذي تقوم حياته على الاستهلاك المحض، وعلى اللذة والمتع الحسية من دون أن يكون هناك أي مضمون آخر يغذي الحضارة بالقيم ويقوم على القيم. أنه الإنسان المادي الذي وصفه الله تعالى بقوله " وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ

هَوَاهُ) "سورة الأعراف – مكية – الآية 12" (جعل إلهه هواه " "وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) "سورة محمد، مدنية – 47، الآية :12 .(

إن العولمة فيما يظهر لنا من مسارها ومن تجلياتها في الأمن والاقتصاد والثقافة، هي عبارة عن عولمة 20 أو25% من سكان العالم على حساب 75% أو 80 %من سكانه، حيث أن فريق العولمة يسيطر على مصائر باقي العالم، ويهيمن على اقتصاده وعلى أسواقه وعلى كيانه الوطنية وعلى هوياته الثقافية . إن القوى المهيمنة على العولمة والتي تستغل العالم تحت شعارها تحتكر التكنولوجيا، وتحتكر التحكم بالنظام المالي على مستوى عالمي، وتتمتع بسهولة حصولها على الموارد الطبيعية على مستوى الكرة الأرضية بأسعار بخسة، وتتمتع بالقدرة على التحكم بوسائل الإعلام والاتصال، وتملك أسلحة الدمار الشامل .

وهكذا تبدو العولمة من هذا المنظور تحكماً في العالم وليس مشاركة له .

لقد لاحظنا دائماً أن محاولات ما يسمى)التحديث الثقافي) أو (التحديث الحضاري) الذي يمارسه الغرب تجاه الآخر، والآن تمارسه الإرادة الأمريكية الغربية تجاه العالم، هو يهدف :إما إلى القضاء على مقومات المناعة والصمود والدور في شعب من الشعوب، وإلغاء منافس محتمل أو فعلي، أو- إذا لم يكن الأمر كذلك – فهو تدمير القوى التي تحول دون جعل هذا الشعب سوقاً للمنتجات التي تصدرها القوى الغربية. تعتبر العولمة أداة من أدوات الاقتصاد، وكما أن الاقتصاد أصبح أداة من أدوات الثقافة، تهدف العولمة إلى تدمير قوى المناعة التي تجعل من العرب أو من المسلمين أو من الصينيين أو من الهنود، أو غير هؤلاء، تجعل منهم قوة منافسة على مستوى المستقبل في المجال الحضاري، بكل ما يعنيه ذلك من علوم وثقافة وتكييف وتكيف للطبيعة ومع الطبيعة، أو إخضاع هذه الشعوب وإخضاع هذه الأمم لأجل أن تكون سوقاً لاستهلاك المواد المصنعة ومصدراً للمواد الخام، ومصدراً للأيدي العاملة الرخيصة، والقضاء في سبيل هذا الهدف على قوى الممانعة في هذه الشعوب، وهذا ما نلاحظه في صور سافرة أو بأساليب سافرة أو مقنعة في محاولة فرض الكيان الإسرائيلي على الأمة العربية والإسلامية. يبدو لنا أن العولمة والحضارة والتنظيم هي إعادة تعبير عن مقولة رسالة الرجل الأبيض، وهي إعادة تعبير عن مقولة تنازع البقاء وبقاء الأصلح التي تعني الأقوى .

إن هذه الصيغة إعادة إنتاج مشروع افتراس العالم بالأنياب والمخالب التي تكونت له نتيجة للتطور العلمي الجديد. إنها مشروع للسيطرة يدخل من باب الاقتصاد، ومن باب الثقافة ومن باب القيم، مشروع

يركز القوة في يد واحدة لأجل أن يفتت المجموع ولأجل أن يسيطر على المجموع .قد لا يبالي هذا النظام بالخصوصيات الثقافية للآخرين إذا لم تتعارض مع مشروعه للسيطرة حيث أنها في هذه الحالة ستتحول إلى مجرد صور فلكلورية تبعث التسلية والبهجة حين تفقد قدرتها على أن تكون قوة ممانعة .

ولكن مجرد أن يكون هذا المضمون الثقافي مشروع ممانعة في مواجهة مشروع التسلط، فإنها تدمر بكل قساوة وبقوة القانون، من قبيل استخدام المؤتمرات التي تستهدف تهديم الأسرة كما في مؤتمر المرأة في بكين وفي القاهرة، أو التي تستهدف تدمير الاقتصاد كما في مؤتمرات الاقتصاد والتنمية، أو تستهدف القضاء على السيادة وإعطاء شرعية للتدخل في صميم خصوصيات كل شعب كما في استخدام شعار حقوق الإنسان والمؤسسات المسماة دولية، أو (قانون الحماية الدينية) التي تنتج إيجاد شرعية دولية للتدخل في شؤون الشعوب الأخرى .

إجراءات إغلاق هذه المنافذ تماماً لا تكفي لحماية الذات الثقافية والحضارية، بل ينبغي أن تعمل إلى جانب ذلك على تحصين الذات. ومن تحصين الذات يكون بتطوير القدرة الثقافية عند المسلم في أبعاد الثقافة كلها، تطوير المضمون الثقافي على مستوى الروحنة والعلاقة مع الله، وعلى مستوى الاندماج مع الطبيعة والمجتمع، وعقلنة العلاقة مع الطبيعة ومع المجتمع، وعلى مستوى تطوير وتفعيل حركة الاجتهاد في الأمة لاكتشاف آفاق الإسلام بالنسبة إلى متغيرات الوضع الإنساني في العالم المعاصر، ولخلق مناعة وكفاءة من كل ذلك تؤهل المسلم لأن يحتفظ بشخصيته في ضمن التنوعات التي تواجهه .

أسس الخصوصية الثقافية للأمة

إن لكل مجتمع من المجتمعات انتماءً ثقافياً وخصوصيةً تميزه عن غيره من المجتمعات، قد تكون هذه الخصوصية جداراً يفصله عن الناس، وقد يكون معبراً يصله بالناس .

إن الخصوصيات الثقافية والحضارية لأمة من الأمم والتي تمثل شخصيتها تنشأ من أمرين رئيسيين: الأول :المعتقد الذي تتولد منه قيم توجه السلوك، وتحكم النظرة إلى الكون والحياة والإنسان، وتحكم علاقة الإنسان بالمجتمع البشري وبالطبيعة وبالكون كله .

وتتولد من المعتقد طبيعة تكوين الأسرة، وعلائق الأسرة، وأخلاق الأسرة، وتربية الناشئة في الأسرة. كذلك النظر إلى العلم والى وظيفة العلم والى طريقة التعليم، كما تتولد منها أنماط من العلاقات بين الناس، بين الإنسان والإنسان، وبين القريب والبعيد، بين الأرحام، بين أبناء البلدة وأبناء المحلة وما إلى ذلك .

الثاني: اللغة التي يتكلمها المجتمع ويتخاطب بها ويتفاعل مع نفسه من خلالها بكل ما تختزنه من خبرة تاريخية متراكمة مع الطبيعة ومع الإنسان ومع الذات، وبما تختزنه من مستويات معرفية وحضارية مرت بها الأمة التي تتكلم تلك اللغة .

يمكن أن نقول إذن أن الخصوصية مقابل العالمية، مقابل ما به الاجتماع مع العالم، تتمظهر في أمرين كبيرين: تتمظهر في المعتقد الذي تتولد منه القيم والمعايير التي تحكم نظرة الإنسان إلى الكون والحياة والإنسان، وتتمظهر في اللغة بما تختزنه من خبرات ومن المضامين التي أشرنا إليها .

صيغ المواجهة مع التغريب والعولمة

نلاحظ في العالم الإسلامي أن صيغ المواجهة أكثر ما تتجلى في الحركات الإسلامية التي يدعوها الغرب أصولية .

هذه الحركات التي نشأت لاعتبارات سياسية في الدرجة الأولى، ولاعتبارات ثقافية في الدرجة الثانية، أخذت تهتم أكثر فأكثر بتأصيل نفسها عن طريق تأصيل الثقافة الإسلامية، وهذه الحركات قد استفادت من الإمكانات المتاحة لوسائل الاتصال الحديثة على مستوى التلفزة والفيديو وأشرطة التسجيل والإنترنت وما إلى ذلك، لتعميم مفاهيمها ورؤيتها الثقافية السياسية والفقهية .

المواجهة الثانية تتم بشكل أقل حدة وأكثر مرونة على مستوى بعض الجماعات الثقافية غير الحركية الإسلامية، مجموعات المثقفين المسلمين غير الحركيين ومجموعات المثقفين غير الإسلاميين الذين ينتمون إلى تيارات قومية، ترى انه يجب المحافظة على الذات، لا من خلال رؤية دينية لهذه الذات ومن خلال الكينونة الدينية للذات بل من خلال الرؤية الموضوعية القومية العلمانية للذات .

المواجهة الثالثة الأقدم والأشمل هي مواجهة القوى الإسلامية المركزية التي تتمركز في المؤسسات الإسلامية الكبرى في العالم الإسلامي وهي مقرات دراسة وتعليم ونشر الإسلام من خارج إطار الحركات السياسية كما يتمثل ذلك في قم والنجف والأزهر ومثيلات هذه المؤسسات على مستوى العالم الإسلامي، تمثل هذه المراكز القلاع الكبرى المؤسساتية والتي تنتمي إلى الأمة على مستوى شامل وغير جزئي، بل على مستوى شمولي تمثل الأمة في مواجهتها للتيارات الغريبة التي تتمثل الآن في تيار العولمة .

ولكن جميع هذه القوى تعاني من عدم الفاعلية بسبب العجز والتخلف .

ملاحظات في أسباب ومظاهر العجز والتخلف

إن الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية بجميع أطرها القومية والوطنية يتميز بأمور تظهر فيها نقاط الضعف أمام التحدي أو أمام الخطر الذي تمثله العولمة :

أولا –نلاحظ أن معظم الأنظمة السياسية التي تحكم شعوب الأمة الإسلامية تفتقر – بنسب متفاوتة – إلى الديمقراطية والى الرعاية الأمينة لحقوق الإنسان، ولا تلعب أي دور في توفير الحوافز عند شعوب هذه الأمة والإبداع، ومن هنا نلاحظ هجرة المبدعين الموهوبين (هجرة الأدمغة) إلى خارج العالم الإسلامي .

لقد أدى هذا إلى سيطرة الروح العشائرية والقبلية أو الفئوية على أنظمة الحكم، وأدى إلى انحسار روح المواطنة بالمعنى الصحيح، ومن ثم أدى إلى التخلف في الكينونة السياسية وفي العلاقة بين المواطن وبين نظام الحكم الذي يقوده ويسيره.

ثانيا –نلاحظ أن التخلف العلمي هو الذي يسم المجتمعات الإسلامية بالرغم من كثرة الجامعات، بالرغم من نمو عدد خريجي الجامعات، بالرغم من تقلص نسبة الأميين في هذه المجتمعات، إلا أننا في العالم الإسلامي حتى ألان لم نمتلك بصورة قوية وفعالة القدرة العلمية المبدعة، لم تتأسس مراكز الأبحاث الجادة لعدم توفير الأموال اللازمة لها، كما لم تتوفر لها الحريات اللازمة، لم تتوفر للمبدعين مجالات الإنتاج والنمو والازدهار .

نلاحظ أن الأموال تصرف على حقول ذات أهمية ثانوية، بينما لا ينال الحقل العلمي حقل البحث العلمي والدراسة المتخصصة عالية المستوى ما يجب أن يناله من عناية.

ثالثاً –نلاحظ أن الوضع السياسي والتنظيمي للدولة الإسلامية في أنفسها وفيما بينها يعوق حركة الأفكار والأفراد، يعوق التواصل الحر مابين العرب والمسلمين، لخضوع حركة التواصل لاعتبارات سياسية وأمنية في الدرجة الأولى. وفي نفس الوقت لا توجد شبكة اتصالات ميسرة بين هذه الدول، كما نلاحظ عدم وجود تعاون علمي فعال بين الدول والشعوب العربية والإسلامية، كما نلاحظ في نفس الوقت عدم وجود تكامل اقتصادي ومالي وصناعي وزراعي بحيث إن التجارة والتواصل البيني بين دول الأمة الإسلامية العربية أو غير العربية متخلف ومحدود جداً بالقياس إلى التواصل بين كل دولة من هذه الدول وبين الدول الغربية الكبرى، وبين التشكلات الاقتصادية الكبرى الموجودة في القارة الأمريكية أو في أوروبا أو في آسيا .

رابعاً –نلاحظ التخلف الكبير في العناية بنشر اللغات الإسلامية وفي مقدمتها اللغة العربية وتليها الفارسية والتركية، نشرها والتأليف فيها وخدمتها، وتكوين المجامع العلمية والثقافية التي تطور وتغني الثروة العلمية، ثروة التعابير العلمية والمصطلحات العلمية بهذه اللغات، وخاصة باللغة العربية .

ومما يتصل بما ذكرناه أن هذه الدول الإسلامية تتراوح ين مستهلكة لكل شيء، ومستوردة لكل شيء وبين دول إنتاجها الأعظم والأضخم هو إنتاج المواد الخام، هي تستهلك المواد المصنعة وتنتج المواد الخام، وهي تعتبر اقتصادها وسوقها اقتصاداً تابعاً وذيلاً بالنسبة إلى الاقتصادات العالمية الفاعلة والمؤثرة .

هذا بالإضافة إلى الوصاية التي مارسها الاستعمار القديم، ثم مارستها بعد الحرب العالمية الثانية القوى الأوروبية الكبرى بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ثم مارستها وتمارسها الآن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وبعد حرب الخليج الثانية، الولايات المتحدة الأمريكية قد أدت إلى نمو ساحق للقدرة الإسرائيلية، والى انكماش في كل الأدوار الاقتصادية والثقافية العلمية والسياسية التي تمارسها الدول الإسلامية تجاه نفسها وتجاه العالم .

هذه بعض مظاهر العجز والتخلف، ونضيف إلى ذلك أن روح الإبداع والاجتهاد في الإسلام متخلفة. ولا تصلح لعلاج ذلك بعض التيارات التي تدعو– تحت عنوان الاجتهاد وستار الاجتهاد– إلى الدخول فيما يدعى الحداثة، لأن هذا يستبطن تجاوزاً للإسلام وليس اجتهاداً في الإسلام . نحن لا ندعو إلى هذا، بل ندعو إلى ترشيد حركة الاجتهاد داخل الإسلام بحيث يتوالد الإسلام من داخله، يبدع ويزدهر من داخله بأفكار جديدة ورؤى تشريعية جديدة، ومناهج تواصل جديدة مع الأمة ومع الطبيعة ومع العالم الآخر، مع المجتمعات الأخرى .

نلاحظ أن هذه الروح الإبداعية الإسلامية لم تعبر عن نفسها بصورة مناسبة حتى بعد إعادة الاعتبار إلى حركة الاجتهاد في جميع المذاهب الإسلامية وفي جميع التيارات الفقهية الإسلامية .

وهذا ما دفع العولمة ومؤسساتها إلى متابعة هجومها بصيغ متنوعة وبآليات ووسائل تناسب كل حقل من حقول المواجهة .

الشرق أوسطية وحقوق المرأة والحماية الدينية والتربية على الإسلام

نلاحظ أن من الجهود البارزة لفرض واقع العولمة بصورتها السياسية والاقتصادية ومن ثم الثقافة محاولة ترسيخ مفهوم)الشرق أوسطية) وتحويله من مفهوم جغرافي إلى مفهوم حضاري وثقافي وسياسي واقتصادي

وإنساني، يهدف إلى دمج إسرائيل في نسيج المنطقة العربية –الإسلامية الإنساني والاقتصادي والثقافي، وتذويب العرب في نظام المصالح الأميركي الصهيوني واستبدال هوية المنطقة العربية الإسلامية بهوية جغرافية تضم إسرائيل .

ونشير إلى أنه من بين الوسائل التي تستخدمها القوى العظمى لفرض فكرة العولمة، المؤتمرات التي تركز على المرأة كما نلاحظ ذلك في مؤتمر القاهرة حول السكان والتنمية وفي مؤتمر بكين حول المرأة وفي مشروع قانون الحماية الدينية الأمريكي .

إن مؤتمرات المرأة تحاول أن تستهدف فرض الرؤية الغربية العلمانية بصيغتها الأمريكية للمرأة وللجنس وللعلاقات الجنسية وللأسرة، فرض هذه النظرة على العالم كله من خلال تطوير وضع قانوني في هذا الشأن يفرض على دول وشعوب العالم .

ومن التمظهرات المريبة التي نعتقد أنها وسائل إضعاف الذات العربية الإسلامية لاختراقها ولفرض ثقافة الآخر، ووجود الآخر هوأن القوى الدولية المهيمنة استخدمت الأونيسكو للدعوة إلى ما يسمى التربية على السلام وحقوق الإنسان والاعتراف بالآخر، ويراد من ذلك تشجيع عناصر التفكك داخل المجتمعات العربية والإسلامية داخل أفريقيا مثلاً، وداخل أمريكا اللاتينية، كما يراد فتح المجال لإسرائيل لتكون جزءاً أو عنصراً معترفاً به ومقبولاً في المنطقة، وذلك من خلال اعتبار أن الآخر الذي يجب قبوله هو إسرائيل، أما الآخر المسلم في أماكن أخرى والآخر العربي وحقوقه فهذا أمر يغض النظر عنه .

كما نلاحظ أن الدعوات التي ظهرت في العالم الغربي والتي تعتبر أن الإسلام هو التحدي الجديد للعالم الغربي وللثقافة وللحداثة وللحضارة، والتي تعتبر أن الإسلام هو العدو، كلها تصب في هدف تدمير الثقافة الإسلامية والكيانة الإسلامية لمصلحة ثقافة العولمة ومصالح القوى الكبرى في العالم التي تريد الهيمنة . إن التعبير الذي عبر عنه (هانتجون) في مقولة صدام الحضارات و (فوكوياما) في مقولة نهاية التاريخ هما التعبيران المميزان في هذا المجال .

ويندرج في هذا السياق أيضا الإصرار غير المبرر إطلاقاً على تشجيع ظاهرة سلمان رشدي وآياته الشيطانية وهي ظاهرة تجاوزت هذا الكتاب وروايته لتكون رمزاً لتشجيع كل ما يؤدي إلى استثارة المسلمين أو انتقاصهم بهدف اتهامهم إذا سكتوا بهدف استلابهم، وإذا تحركوا بهدف انتقاصهم واتهامهم .

نلاحظ أن هذا الاتجاه استدعى رد فعل بارز ومبارك على المستوى العربي والإسلامي ودعا إلى تطوير صيغ التكامل الاقتصادي، والى إعادة الاعتبار للمواثيق المشتركة، ونعتبر أن التعبير الذي صدر عن قمة الدول الإسلامية في طهران قد كشف عن المكنون الثقافي العقائدي الرشيد لمضمون هذه الأمة، لوعي الأمة لمحتواها واتخاذ صيغة المقاومة، ليس المقاومة السلبية، بل المقاومة الايجابية التي تهدف إلى إعادة توليد الإسلام لذاته بالنحو الذي أشرنا إليه فيما سبق .

المقاومة الأوروبية للعولمة

إن هاجس الخوف من المحق الثقافي والاستحواذ ليس مقصوراً على العالم الثالث أو في خصوص العالم العربي والإسلامي، بل إن هذا الهاجس بدأ يظهر بقوة في العالم الأوروبي، حيث نجد أن الدول الأوروبية (كل دولة من جهة) وأن الاتحاد الأوروبي ككل من جهة أخرى، يحاول تنظيم وتحصين ذاته ضد هذا الغزو، وضد مشروع الهيمنة تحت ستار العولمة، ونجد ظواهر ذلك في أوربا تتجلى في مجال اللغة والإنتاج الفني في الأغنية وفي السينما وفي عادات الطعام وفي العادات الاجتماعية إضافة إلى أمور أخرى .

ومن البارز في هذا الحقل الإجراءات الاحترازية في فرنسا حيث وصل الأمر إلى حظر استخدام الألفاظ الانجليزية في الإعلانات أو في وسائل الإعلام .

ونلاحظ أحد التعابير المهمة في سعي أوربا لتحصين نفسها تجاه العولمة الأمريكية، أن الكيان الأوربي يعتبران الأمن المعلوماتي أحد الأهداف الرئيسية لتكتله في مجال الاقتصاد والسياسة والعلوم في مقابل الهيمنة الأمريكية .

إننا نسجل هنا أن الخوف من تيار العولمة لا يقتصر على البلدان العربية والإسلامية وغيرها في العالم الثالث، بل إن التعبير عن هذا الخوف يتصاعد في عقر دار العولمة، حيث إن الطبيعة الافتراسية المادية لتيار العولمة يثير مخاوف في أوساط المفكرين المستقبليين في الولايات المتحدة نفسها الذين يحذرون من أن هذا التيار يمكن أن يفترس القوة التي أطلقته، لأنه يدمر القيم تدميراً كاملاً ويؤدي إلى هزيمة الذات أمام القوة التي يطلقها هذا التيار، وكما تصاعد هذا الخوف في داخل أوروبا نفسها .

العولمة والتفاعل الحضاري

ترى، هل صحيح ما يقال من أننا نقيم على أرض الغرب على الصعيد الحضاري والمدني، وأننا مدينون للغرب بأسباب معاشنا ومظاهر عمراننا، وأن التطور الذ ي نشهده في مجتمعاتنا لم يكن من الممكن حصوله لولا التوسع الغربي، ولولا احتكاكنا بالغرب الحديث؟

ترى، هل هذه حقيقة، هل نحن حقيقة نعيش حضارياً وفكرياً على أرض الغرب؟وما هو المقصود من ذلك؟هل هو المكتشفات الحديثة في الكهرباء ووسائل الاتصال؟ أو هو عالم القيم؟ نحن لا نتحدث عن المنجزات الحديثة التي لا أريد أبداً أن اغفل أثرنا فيها ودورنا فيها، وليس من الإنصاف ذلك وليس من العدالة أن ننكر دورنا في وصول الغرب إلى هذه النتيجة .

ولا أريد أن أنسى دور الغرب في تدمير قدرتنا وطاقتنا على متابعة مسيرتنا وعلى متابعة نمونا .

ولكن يقال إن الإنسان يعيش على هذه الأرض، ما المقصود بالأرض، هل المقصود البيوت الحديثة والسيارات والطائرات؟أو المقصود عالم القيم؟

نحن نتحدث عن العيش في نطاق عالم قيمي، في عالم القيم نحن نلاحظ أننا مستهدفون، إما على صعيد التقنيات، هذا الغرب الذي أنتج هذه المعجزات هو الغرب الذي أنجز النازية والفاشية والماركسية بتطبيقاتها الشرسة، هو الذي أنتج فكرة اللذة، وفكر الذرائع، وفكر العنف، وفكر الاستهلاك المفرط والتدمير الوحشي للطبيعة ولكل الإمكانات .

ترى، هل المراد هذا؟

هذا هو ما نلاحظه، وحينما يشعر الغرب الآن بأن الإنسان الآخر الذي يمثله عالم الإسلام أو العوالم الأخرى خارج الغرب يمكن أن يملك القدرة على التناظر معه يخترع لها هذه الصيغة، صيغة العولمة ليدمرها تحت ستار التقدم، انه من قبيل من يعطي السم في اللذة ليدمر الضحية وهي ضاحكة مسرورة .

ترى ماذا قدمت الحضارة المعاصرة بالصيغة التي آلت إليها، ماذا قدمت للإنسانية غير توفير المتع المادية وغير استهلاك الطبيعة المفرط وتدمير البيئة الخطر؟ماذا قدمت غير تنمية وسائل إشباع اللذة، لتدعي لنفسها الوصاية على مصير البشر وعلى مضمون البشر وعلى أخلاق البشر وعلى تشريع البشر؟ مازالت الآلام ومظاهر التخلف والنقص التي كانت تعاني منها الإنسانية على مدى التاريخ قائمة بالفعل، أكثر العالم فقير وجائع ومحروم، في وقت تتضخم فيه الثروة ويبلغ الإشباع حد التخمة لما لا يزيد على

عشرين بالمائة من العالم. ثمانون بالمائة من الجنس البشري يعانون من الفقر والجوع والمرض والتخلف، بينما تستحوذ نسبة العشرين بالمائة على كل ثروات العالم .

أما العلم فهو حكر على هذه القلة التي لا تسمح للأكثرية، أن تنال من العلم إلا بمقدار ما يجعلها قادرة على إنتاج السلع الأساسية التي تغذي بها الصناعات الكبرى الصناعات المتطورة وما تتمكن به استهلاك البضائع التافهة في اغلبها التي تنشئها وتصنعها هذه القلة .

هناك قيود كثيرة على التطور العلمي، لقد غدا العلم وسيلة للسيطرة من فريق على فريق، بدل أن يكون وسيلة لتحرير البشرية كما هي نظرة الإسلام .

الحروب تزداد حدة وشدة وضراوة وانتشاراً .

وقد توصلت نسبة العشرين بالمائة من العالم، توصلت القوة البشرية التي تطلق تيار العولمة إلى أن تزرع الفتن والثورات والانقسامات بين الشعوب، وتفتت وحدتها لأجل أن تضمن استمرار السيطرة عليها . لقد تخلفت إلى مستوى خطير أخلاق الحب والسماح والإيثار والعفة، وتقلصت وضمرت الحياة الروحية والتعلق بالقيم .هذا هو المناخ الذي تروجه العولمة وتريد أن تثبته باعتباره صيغة نهائية لتطور الجنس البشري .

العولمة الإنسانية

إن العولمة باعتبارها إنسانية نحو تبادل المعونة ونحو التكامل المعرفي ونحو تقديم الإنسان هي راسخة في صميم الإيمان الديني، وقد عبر عنها الإسلام حين دعا إلى التعاون البشري على أساس البر والتقوى، وحينما جعل الهدف المستبطن في التنوع هو التعارف. وحينما أرسى فلسفة العلم على قاعدة أنه ذخيرة لكل بشر، وان الهدف من العلم هو خدمة الإنسان وليس العلم للعلم الذي يؤدي إلى السيطرة كيفما اتفق على المجتمع وعلى الطبيعة .

بهذا المعنى فان العولمة باعتبارها هدفاً إنسانياً لإغناء الآخر وللتكامل معه ولإعطائه فرصة الازدهار، هي فكرة أصيل وذخيرة أصيلة للإيمان الديني عند الجميع وخاصة في الإسلام .

من الأفكار التي تتصل بهذا البحث وينبغي إبرازها والتي تكشف عن الروح الشريرة التي أنتجت صيغة العولمة، النظرة التي طورتها الروح الفاشستية الغربية إلى العلم والى وظيفة العلم في مقابل نظرة الإسلام .

إننا نلاحظ أن هذه الروح الغربية التي أنتجت العولمة على مستوى العلاقات البشرية، هي التي أنتجت اشد

الأسلحة فتكاً وتدميراً، بحيث إن الأسلحة التي أنتجها العقل الغربي والروح الغربية أخذت تهدد وجود الجنس البشري، لأول مرة في التاريخ، يمكن أن تؤدي غلطة، يمكن أن يؤدي عقل مجرم إلى إطلاق قوى لا يمكن السيطرة عليها تدمر الكرة الأرضية برمتها أو تدمر أعظم انجازات العقل الإنساني . هذه الروح التي أنتجت هذه القوى الشريرة لا يمكن إطلاقاً أن تدعي لنفسها أهلية وضع نظام للعلاقات الإنسانية يستجيب لعالم القيم الذي يزدهر فيه الوجود الإنساني، بل هي خليقة بأن تعيد إنتاج نظام قيم يدمر خير ما في الإنسان لمصلحة روح الشر التي تمثلت دائماً في هذا العقل الشرير .

تخلف المسلمين ودور الإسلام

إن إحدى العلل الأساسية التي يعاني منها الاجتماع الإسلامي هو التخلف الخطير في الفكر السياسي الذي يهدف إلى بناء الاجتماع السياسي في المجتمعات الإسلامية على قاعدة الشورى وحقوق الإنسان وقيمة الفرد وفي نطاق تكامله مع المجتمع وفي نطاق المجتمع .

إن الدولة السلطانية – في الماضي – قد انتخبت فكراً سياسياً يناسبها. فنجد أن الكتابات السياسية تركزت على عنصر الطاعة، طاعة الرعية للحاكم، وصيغ جباية الأموال للحاكم، ولم تبحث في حقوق المواطن والى حياة المواطن والى ثروة المواطن، والى ضوابط إنفاق المال العام .

لقد عطل الاستبداد السياسي وعطل التحكم السلطاني القدرة على استنباط الفقه السياسي الذي يعبر عن جوهر العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية في حرية الفرد وحقوق الإنسان وحقوق المجتمع وطبيعة الدولة العادلة وما إلى ذلك .

وهذه إحدى العلل الكبرى التي يعاني منها الاجتماع الإسلامي في العصر الحديث، والتي تسكن في لاوعي المجتمع وفي لاوعي الحكم .

إننا بهذا الواقع لا نستطيع بطبيعة الحال أن نواجه فكر العولمة وتيار العولمة، لا بد من إصلاح عميق، لابد من أن تتضافر جهودنا دولاً وشعوباً، حكاماً ومواطنين على الخروج بحكمة من هذا الواقع نحو آفاق تعيد للذات الإنسانية احترامها .

سيطرة الخوف

إننا نعيش فيما بيننا في ظل الخوف وتوازنات الخوف. الحاكم يخاف من المحكوم، والحكام يخاف بعضهم من بعض داخل الدولة وفيما بين الدول. والمجتمع يخاف من مجموعاته الداخلية ويخاف من حكامه،

خوف متبادل، والخوف يدفع بالدول والمجتمعات إلى وضع صيغ تشريعية وتنظيمية واقتصادية لحماية الذات من الأخطار النابعة من ذاتها ضد ذاتها، بحيث أن الأمة تبدو لي في كثير من الحالات مصداقاً للتحذير القرآني الذي بينه الله تعالى بالنسبة إلى من كان بأسهم بينهم شديداً (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ). وهذا يشل قدرة الأمة على التصدي للخطر الآتي من الخارج .

أنسنة العولمة العربية

إن هذه الاعتبارات كلها يجب أن تحملنا على العمل الجاد لأجل أنسنة العولمة، يجعل العولمة تقوم على رؤية إنسانية للعالم، وتلحظ سلامة الجنس البشري وكرامته في الوقت نفسه، تقوم على تدمير أسلحة الدمار الشامل ونزعها على مستوى العالم، وليس فقط على مستوى الضعفاء وإبقائها في يد الأقوياء .

وعلى تنظيم الاستفادة من الموارد الطبيعية على الكوكب الأرضي، ووقف حالة الاستحواذ والاستغلال المفرط للموارد من قبل القوى العالمية المهيمنة، وإخضاع الاقتصاد لحاجات الشعوب وليس لمطامع حفنة من أغنياء العالم وتوجيهه لمصلحة الجنس البشري وليس لمصلحة أل 20% من سكان الكوكب .

إيجاد مجالات للتفاهم الإنساني توفق بين الشخصية الحضارية والثقافية للمجموعات البشرية وبين الجوامع المشتركة بينها على المستوى العالمي.

إن هذه الرؤية تنسجم مع الرؤية الإسلامية للعولمة التي تقوم على مبدأ " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا " وعلى مبدأ " وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى ."

إننا نرى أن من غير الواقعي ومن غير الصحيح والمنطقي مواجهة العولمة بالانغلاق، أو برفض كل شيء أو بالعودة إلى النص من دون وعي. إن علم الشريعة هو علم الفقه الذي هو علم الوعي، والفقه يعني تجاوز النص لا بمعنى رفضه، بل بمعنى التعمق بفهمه عمودياً وأفقياً بما يستكشف المستقبل وبما يستجيب لضرورات الحاضر.

نعتقد أن الأساس في المواجهة يجب أن يرتكز على الأمور التي سبقت الإشارة إليها. ونضيف إلى ذلك انه لابد من تطوير عميق في مناهج التعليم وفي العلوم عندنا ابتداء من رياض الأطفال إلى أرقى المستويات الجامعية، يجب تطوير نظام التعليم بما يتوافق مع حاجات الأمة ومع الاندماج في الطبيعة ومع رؤية المستقبل، يجب أن نعيد تكوين علاقتنا مع الطبيعة .

وفي نفس الوقت يجب إعادة الاعتبار بكل قوة إلى الأسرة وقيم الأسرة، والى بنى وقيم الاجتماع الإسلامي، إلى إعطاء مفاهيم الحوار والمحلة والحرفة وكل الأطر التي انتظم فيها الاجتماع الأهلي العربي الإسلامي على مدى التاريخ، انطلاقاً من مبدأ الأخوة أو مبدأ التآخي الذي أرساه الإسلام في التعبير الأول من تعابير الاجتماع المديني في المدينة بعد الهجرة النبوية .

يجب إعادة الاعتبار إلى هذه القيم لا باعتبارها ثقافية نظرية، بل باعتبارها أساليب لتكوين الاجتماع الإسلامي العربي على الأسس الفكرية الإسلامية التي تنبع من نظام القيم الإسلامية العربية الذي تستهدفه تيارات الحداثة، بكل ما تحتويه من فردية وشهوانية حسية ومادية .

وفي ظل ذلك تعميق الوعي الروحي (روحنة الحياة وروحنة السلوك) في مقابل ما تقتضيه الحداثة من مادية ومن ذرائعية ونفعية، يجب أن تعمق في شخصية المسلم روح العبادة وروح الارتباط بالله – الروحنة – وهذه وظيفة العلم والتربية داخل الأسرة وداخل المدرسة وداخل مؤسسات المجتمع الأهلي .

إن القوة المعنوية الروحية التي أطلقت الحضارة الإسلامية العظمى في القرنين الثالث والرابع الهجريين، (هذه الحضارة التي يتجاهلها الغرب الآن)، إن هذه القوة الروحية المعنوية العظمى نشأت من الإسلام وهو لا يزال موجوداً ولا يزال قادراً على أن يطلق هذه الروح، إذا اندمجت فيه وتفاعلت معه شخصية الأمة على مستوى أي شعب من شعوبها، فإنه قادر على أن يطلق الطاقة الكامنة في الروح الإنسانية وفي العقل البشري ليبدع، بالمقاييس المعاصرة، مؤسسات ومنجزات حضارية تقوم على مبدأ (الروحنة) والأخلاق والقيم الإنسانية .

ونعتقد أن أحد أهداف مواقع القوة والسيطرة والتوجيه في العالم الغربي هو الحيلولة دون استعادة المسلمين للتفاعل الحي مع الإسلام باعتباره طاقة محركة عظمى لتكوين الإنسان وإطلاق طاقاته الحديثة .

إن دور الإسلام في إطلاق هذه الطاقة هو ليس دور الأمر المادي المحرك لحوافز الانطلاق، بل انه دور العامل المعنوي الداخلي الذي يهيئ العقل والروح للإبداع .

نتذكر هنا قول الله سبحانه وتعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿الأنفال: ٢٤﴾ " حيث إن المفسرين فهموا من ذلك الدعوة إلى الإيمان بالغيب إلى العبادة، ونحن نفهم من الآية أوسع من ذلك بكثير، الدعوة هي لتجديد الروح وتجديد العقل والانفتاح على العالم واعتماد مبدأ التجديد واعتماد الروح العلمية والرؤية الموضوعية للذات وللإنسان وللعالم.

المصدر | موقع الشيخ محمد مهدي شمس الدين